ظهور المماليك
ونهاية
الدولة الأيوبية في مصر

obeikandl.com

obeikandl.com

الأصل اللغوي لكلمة مملوك

المماليك في اللغة العربية :

هم الذين سُبُوا ولم يُسْبَ آباؤهم ولا أمهاتهم[١].

ومع أن لفظ المماليك بهذا التعريف يعتبر عامًا على معظم الرقيق، إلا أنه اتخذ مدلولًا اصطلاحيًا خاصًا في التاريخ الإسلامي.

المدلول الاصطلاحي لكلمة مماليك :

يرجع مدلول كلمة مماليك إلى أيام الدولة العباسية في عهد :

- ✓ الخليفة العباسي "المأمون" والذي حكم من سنة ١٩٨هـ إلى ٢١٨هـ .
- ✓ والخليفة "المعتصم" الذي حكم من سنة ٢١٨هـ إلى ٢٢٧هـ

ففي فترة حكمهما جُلبت أعداد ضخمة من الرقيق عن طريق الشراء، واستخدموهم كفرق عسكرية بهدف الاعتماد عليهم في تدعيم نفوذهما.

ومع مرور الوقت- أصبح المماليك الأداة العسكرية الرئيسية -وأحيانًا الوحيدة- في كثير من البلاد الإسلامية..

وعندما قامت الدولة الأيوبية كان أمراؤها يعتمدون على المماليك الذين يمتلكونهم في تدعيم قوتهم، ويستخدمونهم في حروبهم، لكن كانت أعدادهم محدودة إلى حدٍّ ما، إلى أن جاء الملك الصالح أيوب، وحدثت فتنة خروج الخوارزمية من جيشه، فاضطُرّ -رحمه الله- إلى الإكثار من المماليك حتى يقوي جيشه ويعتمد عليهم، وبذلك تزايدت أعداد المماليك، وخاصة في مصر[٢].

obeikandl.com

تاريخ المماليك :

كان الملك الصالح يستعين بالجنود الخوارزمية الذين كانوا قد فرُّوا من قبلُ من منطقة خوارزم بعد الاجتياح التتري لها، وكان هؤلاء الجنود الخوارزمية جنودًا مرتزقة بمعنى الكلمة.. بمعنى أنهم يتعاونون مع من يدفع أكثر، ويعرضون خدماتهم العسكرية في مقابل المال، فاستعان بهم الملك الصالح أيوب بالأجرة، ودارت موقعة كبيرة بين جيش الملك الصالح أيوب وبين قوى التحالف الأيوبية الصليبية، وعُرِفَت هذه الموقعة باسم موقعة غزة، وكانت في سنة٦٤٢هـ، وكانت هذه الموقعة قد وقعت بالقرب من مدينة غزة الفلسطينية، وانتصر فيها الملك الصالح انتصارًا باهرًا، حرّر بيت المقدس نهائيًا، ثم أكمل طريقه في اتجاه الشمال، ودخل دمشق، ووحّد مصر والشام من جديد، بل اتجه إلى تحرير بعض المدن الإسلامية الواقعة تحت السيطرة الصليبية، فحرر بالفعل طبرية وعسقلان وغيرهما.

غير أنه حدث تطور خطير جدًا في جيش الصالح أيوب رحمه الله، حيث انشقت عن جيشه فرقة الخوارزمية المأجورة.. وذلك بعد أن استمالها أحد الأمراء الأيوبيين بالشام مقابل دفع مال أكثر من المال الذي يدفعه لهم الصالح أيوب، ولم تكتفِ هذه الفرقة بالخروج، بل حاربت الصالح أيوب نفسه، ولم

يثبت معه في هذه الحرب إلا جيشه الأساسي الذي أتى به من مصر، وعلى رأسه قائده المحنّك ركن الدين بيبرس.

وجرح الصالح أيوب من هذه الحرب المؤسفة وقد أدرك أنه لا بد أن يعتمد على الجيش الذي يدين له بالولاء لشخصه لا لماله . فبدأ في الاعتماد على طائفة جديدة من الجنود بدلاً من الخوارزمية، وكانت هذه الطائفة هي "المماليك"[٣]

من أين جاءوا؟

كان المصدر الرئيسي للمماليك إمّا بالأسر في الحروب، أو الشراء من أسواق النخاسة.. ومن أكثر المناطق التي كان يُجلَب منها المماليك بلاد ما وراء النهر (النهر المقصود هو نهر جيحون. وهو الذي يجري شمال تركمانستان وأفغانستان ويفصل بينهما وبين أوزبكستان وطاجيكستان)، وكانت الأعراق التي تعيش خلف هذا النهر أعراقًا تركيةً في الأغلب؛ لذا كان الأصل التركي هو الغالب على المماليك وإن كان لا يمتنع أن يكون هناك مماليك من أصول أرمينية، أو مغولية، أو أوربية وكان هؤلاء الأوربيون يُعرَفون بالصقالبة، وكانوا يُستقدَمون من شرق أوربا بوجه خاص.

معاملة خاصة:

وقد كانت الرابطة بين المملوك وأستاذه من طرازٍ خاص؛ فقد كان السلطان الصالح نجم الدين أيوب -ومن تبعه من الأمراء- لا يتعاملون مع المماليك باعتبارهم رقيقًا.. بل على العكس من ذلك تمامًا، فقد كانوا يقربونهم جدًا منهم لدرجة تكاد تقترب من درجة أبنائهم، ولم تكن الرابطة التي تربط بين المالك والمملوك هي رابطة السيد والعبد، بل رابطة المعلم والتلميذ، أو رابطة الأب والابن أو رابطة كبير العائلة وأبناء عائلته.. وهذه كلها روابط تعتمد على الحب في الأساس لا على القهر أو المادة، حتى إنهم كانوا يطلقون على السيد الذي يشتريهم لقب "الأستاذ"، وليس لقب "السيد".

تربية متميزة :-

كما كانت تربية المماليك تربيةً متميزة للغاية، يمتزج فيها تعليم الشرع بفنون الفروسية، بالمحاسبة على السلوك والآداب، ويشرح لنا المقريزي رحمه الله كيف كان يتربى المملوك الصغير الذي يُشترى وهو ما زال في طفولته المبكرة فيقول: "إن أول المراحل في حياة المملوك هي أن يتعلم اللغة العربية قراءة وكتابة، ثم بعد ذلك يُدفع إلى من يعلمه القرآن الكريم، ثم يبدأ في تعلم مبادئ الفقه الإسلامي وآداب الشريعة الإسلامية.. ويُهتم جدًا بتدريبه على الصلاة، وكذلك على الأذكار النبوية، ويُراقب المملوك مراقبة شديدة من مؤدبيه ومعلميه، فإذا ارتكب خطأً يمس الآداب الإسلامية نُبه إلى ذلك، ثم عُوقِب...".

ثم إذا وصل المملوك بعد ذلك إلى سن البلوغ جاء معلمو الفروسية ومدربو القتال فيعلمونهم فنون الحرب والقتال وركوب الخيل والرمي بالسهام والضرب بالسيوف، حتى يصلوا إلى مستويات عالية جدًا في المهارة القتالية، والقوة البدنية، والقدرة على تحمل المشاق والصعاب.

ثم يتدربون بعد ذلك على أمور القيادة والإدارة ووضع الخطط الحربية، وحل المشكلات العسكرية، والتصرف في الأمور الصعبة، فينشأ المملوك وهو متفوق تمامًا في المجال العسكري والإداري، وذلك بالإضافة إلى حمية دينية كبيرة، وغيرة إسلامية واضحة.. وهذا كله -بلا شك- كان يثبت أقدام المماليك تمامًا في أرض القتال.

وكل ما سبق يشير إلى دور من أعظم أدوار المربين والآباء والدعاة، وهو الاهتمام الدقيق بالنشء الصغير، فهو عادة ما يكون سهل التشكيل، ليس في عقله أفكار منحرفة، ولا عقائد فاسدة، كما أنه يتمتع بالحمية والقوة والنشاط،

وكل ذلك يؤهله لتأدية الواجبات الصعبة والمهام الضخمة على أفضل ما يكون الأداء.

اهتمام خاص من سيدهم :-

وفي كل هذه المراحل من التربية كان السيد الذي اشتراهم يتابع كل هذه الخطوات بدقة، بل أحيانًا كان السلطان الصالح أيوب رحمه الله يطمئن بنفسه على طعامهم وشرابهم وراحتهم، وكان كثيرًا ما يجلس للأكل معهم، ويكثر من التبسط إليهم، وكان المماليك يحبونه حبًا كبيرًا حقيقيًا، ويدينون له بالولاء التام..[٤].

وكان المملوك إذا أظهر نبوغًا عسكريًا ودينيًا فإنه يترقى في المناصب من رتبة إلى رتبة، فيصبح قائدًا لغيره من المماليك، ثم إذا نبغ أكثر أُعطِي بعض الإقطاعات في الدولة فيمتلكها، فتدر عليه أرباحًا وفيرة، وقد يُعطى إقطاعات كبيرة، بل قد يصل إلى درجة أمير، وهم أمراء الأقاليم المختلفة، وأمراء الفرق في الجيش، وهكذا.

وكان المماليك في الاسم ينتسبون عادة إلى السيد الذي اشتراهم؛ فالمماليك الذين اشتراهم الملك الصالح يعرفون بالصالحية، والذين اشتراهم الملك الكامل يعرفون بالكاملية، وهكذا[٥].

المماليك في مصر:-

بدأ ظهور المماليك القوي على مسرح العالم الإسلامي في مصر في عصر الملك الصالح نجم الدين أيوب؛ ففي سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م تواترت الأنباء عن قرب قدوم حملة جديدة تحت راية الصليب ضد مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا بهدف

احتلال مصر. وبسرعة عاد الملك الصالح نجم الدين أيوب من الشام إلى مصر لكي ينظم وسائل الدفاع.

وفي العشرين من شهر صفر سنة ٦٤٧هـ/ ٤ يونيو ١٢٤٩م نزل الصليبيون قبالة دمياط. وأمامهم لويس التاسع يخوض المياه الضحلة، وهو يرفع سيفه ودرعه فوق رأسه. وانسحب الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ قائد المدافعين عن المدينة بسرعة بعد أن ظن أن سلطانه المريض قد مات. وفي أعقابه فرّ الجنود، وفي أعقاب الجنود والفرسان فرّ السكان المدعورون. وهكذا سقطت دمياط دون قتال.

دور مهم للمماليك في معركة المنصورة:

وفي ليلة النصف من شعبان سنة ٦٤٧هـ وفي خضم هذه الأحداث توفي السلطان الصالح نجم الدين أيوب في يوم الاثنين ١٤ من شعبان سنة ٦٤٧هـ/ ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩م، وأخفت زوجته شجرة الدر نبأ وفاته لكي لا تتأثر معنويات الجيش. وأرسلت في استدعاء ابنه توران شاه من إمارته على حدود العراق.

واشتدت المقاومة المصرية ضد القوات الصليبية، وبعد عدة تطورات كانت القوات الصليبية تتقدم نحو مدينة المنصورة في سرعة. ولكن الأمير بيبرس البندقداري كان قد نظّم الدفاع عن المدينة بشكل جيد. وانقشع غبار المعركة عن عدد كبير من قتلى الصليبيين بينهم عدد كبير من النبلاء، ولم ينجح في الهرب سوى عدد قليل من الفرسان هربوا على أقدامهم تجاه النيل ليلقوا حتفهم غرقًا في مياهه. أمّا الجيش الصليبي الرئيسي بقيادة لويس التاسع فكان لا يزال في الطريق دون أن يعلم بما جرى على الطليعة الصليبية التي اقتحمت المنصورة في ٤ من ذي القعدة ٦٤٧هـ/ فبراير ١٢٥٠م.

وفي المحرم من سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م دارت معركة رهيبة قرب فارسكور قضت على الجيش الصليبي. وتم أسر لويس التاسع نفسه في قرية منية عبد الله شمالي المنصورة، ثم نقل إلى دار ابن لقمان القاضي بالمنصورة؛ حيث بقي سجينًا فترة من الزمان حتى أُفرِجَ عنه لقاء فدية كبيرة، ومقابل الجلاء عن دمياط[٦].

انتهاء حكم الأيوبيين في مصر:

بعد عهد الصالح أيوب، تولّى ابنه توران شاه الذي لم يكن على قدر المسئولية؛ فانشغل باللهو بعد انتصاره على الصليبيين، وأساء معاملة قادة الجيش من المماليك، وكذلك أساء إلى زوجة أبيه شجرة الدر؛ فتآمرت هذه مع فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس وقلاوون الصالحي وأيبك التركماني وهم من المماليك الصالحية البحرية على قتل "توران شاه". وبالفعل تمت الجريمة في يوم ٢٧ محرم سنة ٦٤٨هـ، أي بعد سبعين يومًا فقط من قدومه من حصن كيفا واعتلائه عرش مصر..! وكأنه لم يقطع كل هذه المسافات لكي "يحكم" بل لكي "يُدفن"!

وهكذا بمقتل "توران شاه" انتهى حكم الأيوبيين تمامًا في مصر، وبذلك أغلقت صفحة مهمة من صفحات التاريخ الإسلامي[٧].

لقد حدث فراغ سياسي كبير بقتل توران شاه، فليس هناك أيوبي في مصر مؤهل لقيادة الدولة، ومن ناحية أخرى فإن الأيوبيين في الشام مازالوا يطمعون في مصر، وحتمًا سيجهزون أنفسهم للقدوم إليها لضمها إلى الشام.. ولا شك أيضًا أن المماليك كانوا يدركون أن الأيوبيين سيحرصون على الثأر منهم، كما أنهم كانوا يدركون أن قيمتهم في الجيش المصري كبيرة جدًا، وأن القوة الفعلية في مصر ليست لأيوبي أو لغيره إنما هي لهم، وأنهم قد ظُلِموا

بعد موقعة المنصورة وفارسكور، لأنهم كانوا السبب في الانتصار ومع ذلك همّش دورهم.

كل هذا الخلفيات جعلت المماليك -ولأول مرة في تاريخ مصر- يفكرون في أن يمسكوا هم بمقاليد الأمور مباشرة!.. وما دام "الحكم لمن غلب"، وهم القادرون على أن يغلبوا، فلماذا لا يكون الحكم لهم؟!

لكن صعود المماليك مباشرة إلى الحكم سيكون مستهجنًا في مصر، فالناس لا تنسى أن المماليك -في الأساس- عبيد، يباعون ويشترون، وشرط الحرية من الشروط الأساسية للحاكم المسلم.. وحتى لو أُعتِقوا فإن تقبّل الناس لهم باعتبارهم (حُكّامًا) سيكون صعبًا.. وحتى لو كثرت في أيديهم الأموال، وتعددت الكفاءات، وحكموا الأقاليم والإقطاعات، فهم في النهاية مماليك.. وصعودهم إلى الحكم يحتاج إلى حُجّة مقنعة للشعب الذي لم يألفهم في كراسي السلاطين.

كل هذا دفع المماليك البحرية الصالحية إلى أن يرغبوا بعد مقتل توران شاه في "فترة انتقالية" تمهد الطريق لحكم المماليك الأقوياء، وفي ذات الوقت لا تقلب عليهم الدنيا في مصر أو في العالم الإسلامي.

كانت هذه هي حسابات المماليك الصالحية البحرية.. فماذا كانت حسابات شجرة الدر؟!

ولما قتل توران شاه أعلنت شجرة الدر نفسها حاكما على البلاد وصار يخطب لها على المنابر مما أهاج أمراء الشام وبدأت مطامعهم في ملك مصر.

وكان هناك صراع دائر بين عز الدين أيبك وفارس الدين إقطاي، وهما قائدا المماليك آنذاك.

واستطاع عز الدين أيبك أن يتزوج من شجرة الدر ويعلن نفسه حاكما على مصر مما أوغر صدر إقطاي فبدا تمرده واضحا وراح يحرض مماليكه على إشاعة الفوضى والاضطرابات في البلاد . فدبرت له شجرة الدر أمرا وأوعزت إلى قطز فقتله وحدث أن عاد عز الدين أيبك إلى زوجته القديمة (أم علي) فغضبت شجرة الدر . ودبرت له مؤامرة وقتلته . ولما علمت زوجته (أم علي) أرسلت إليها جواريها فقتلنها .

وفي هذه الفترة هاجم التتار مصر بعد أن دمروا بغداد . وأشاعوا الفوضى ونشروا الفزع في أرجاء العراق وبلاد الشام فاستعد لهم قطز نائب السلطنة آنذاك . واستطاع أن يدبر المال اللازم للمعركة ووحد الصفوف وخرج للقاء التتار وانتصر عليهم في عين جالوت .

وبعد الانتصار الكبير على التتار وإراحة العالم من شرهم ووحشيتهم حدث خلاف بين قطز ومساعده بيبرس البندقداري إثر مماطلة قطز في تولية بيبرس إمارة حلب ، فاغتاله بيبرس ، وعاد إلى مصر ليتولى شؤون حكمها وتبدأ حلقة جديدة في حياة الدولة المملوكية

بدأت دولة المماليك في مصر سنة ٦٤٨هـ واستمرت حتى سنة ٩٢٣هـ. وهي منقسمة إلى عهدين:

عهد المماليك البحرية: واستمر من سنة ٦٤٨هـ حتى سنة ٧٨٤هـ. وتعاقب خلالها سبع وعشرون سلطانًا وفي هذا العهد تحققت إنجازات عسكرية ضخمة مثل الانتصار على التتار في عين جالوت وفي حمص وشقحب، وأصبح الشام والحجاز واليمن تابعًا لدولة المماليك في مصر.

عهد المماليك الشراكة « البرجية »: واستمر من سنة ٧٨٤هـ حتى سنة ٩٢٣هـ، تعاقب خلالها ثلاثة وعشرون سلطانًا، وفي هذا العهد كان الاهتمام منصبًا على التوسع العمراني وبناء القصور والجوامع والمدارس والمعاهد.

إلا إن هذا العهد اتصف بكثرة المظالم والمغارم والضرائب الفادحة، والضعف التجاري الناتج من تحول التجارة إلى رأس الرجاء الصالح.

كان المماليك دائمًا أهل طعان ونزال، عسكريون من الطراز الأول، لذلك كانوا أبطال عين جالوت حمص وشحقب وفتحوا قبرص، ولكنهم لما نسوا الرسالة التي عاشوا من أجلها في الدفاع عن الإسلام وتحولوا إلى جباة ضرائب متسلطين على العباد خرجوا من ذاكرة التاريخ وسقطت دولتهم.

أما سقوطها فكان على يد السلطان « سليم الأول » العثماني، الذي انتصر على السلطان « قنصوه الغوري » في مرج دابق بالشام سنة ٩٢٢هـ، ثم واصل الانتصار في الريدانية على السلطان « طومان باي » سنة ٩٢٢هـ، وبعدها سقطت دولة المماليك العريقة بعد حوالي ثلاثة قرون من الزمان.